

الأفضل بن بدر الجمالي وأثره في التاريخ الفاطمي

عبد المنعم محمد الشيخ

الموسم

(١)

كان بدر الجمالي، والد الأفضل، أرمني الجنس، اشتراه جمال الدولة بن عمار ورباه عنده، ولصائب رأيه، وقوة عزمه، وشهامته، استنابه المستنصر الفاطمي على مدينة صور، وقيل عكا، ثم أخذ يتدرج في المناصب الكبرى لما أصابه من نجاح في الحروب السورية، وحرب الاتراك، حتى أضحت أشد الحكام قوة في سوريا. ولما أطبقت المصائب على الدولة الفاطمية في عهد المستنصر استجار به الخليفة، ليرياً الصدع، ويقوم المعوج، فقدم مصر على رأس جيوشه السورية المسماة الشرقيين Easterns تمييزاً لهم عن الترك، والبرابرة، والعناصر الموجودة بالبلاد، وذلك بعد أن فتكت المجاعة بأهل البلاد ثماني سنوات (٤٤٦-٥٤٤ هـ). وبعد أن عاث الترك فيها فساداً، وبعد مجيئه فوض له الخليفة كل شيء، فسميت الوزارة باسم «وزارة التفويض» ومن ثم علا نجم الوزارة وهو نجم الخلافة، وذاك طابع التاريخ الفاطمي، في عهده الأخير، والحق يقال إن البلاد تدين لبدر وابنه الأفضل مدى نصف قرن بما سادها من هدوء ورخاء.

ولما مرض بدر الجمالي، أوصى بتدبير المملكة من بعده، لولده الثاني، «شاهين شاه» وذلك لطول ما لازمه، وتدريب على يده واكتسب من سيرته، ولما تولي شاهين شاه الوزارة لقب بالأفضل وبجميع الألقاب، والامتيازات، التي كانت لأبيه ولقد كان للأفضل، أخ، يكبره، يدعى «الأوحد» لم يعهد إليه أبوه، بالوزارة، لأنه خرج عليه، وتحصن في الإسكندرية، فمضى إليه أبوه ونازله حتى هزمه، ودخل الإسكندرية، وبنى بها مسجد العطارين، أضف إلى ذلك ما تحلى به الأفضل من أخلاق وميزات، لم تكن لأخيه الأوحد.

ولم يخلص الأمر للأفضل بسهولة، فإن أمين الدولة لاوون وهو من فتيان بدر، تنكر لماضيه مع سيده، وحاول في ساعات بدر الأخيرة، أن يقفز إلى الوزارة، عن طريق رشوة الأمراء، واسترضاء الخليفة الفاطمي، فأبى المستنصر الوفي ذلك عليه، ودس له منافسه، ناصر الدولة أفتكين، حتى اجتمع الأمراء، على مناصرة الأفضل، فركب الأفضل بعد فشل لاوون إلى باب العيد. فأكرم الخليفة وفادته، وأقامه مقام أبيه، وسد به مسده، واتبع ذلك بزيارة لبدر، وهو على فراش الموت، مقراً أمر ابنه من بعده، مجاملة له، وطمأنه على مصير ابنه، وبذلك أضحت الأفضل وزيراً مكان أبيه، واجتمع له من الرتب والألقاب والأدعية ما كان لأبيه. أما لاوون فقد عفا عنه

الأفضل، وأبقى عليه، ثم اعتقله أثناء حركة نزار بالإسكندرية، مخافة خيانتة، وظل كذلك حتى مات في معتقله.

وقد كان الأفضل يلقب بالسيد الأجل سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام، ناصر الدين، خليل أمير المؤمنين، أبو القاسم شاهين شاه، ابن السيد الأجل، أمير الجيوش المستنصري، وفي الحقيقة أن لقب الأفضل يسترعي انتباهنا، ويقدر المستطاع تلمست علة هذه التسمية أثناء قراءتي في الخطط المقرزية، إذ يقول المقرزي ما نصه: فلما قام شاهين شاه أمير الجيوش من بعد أبيه، ومات الخليفة المستنصر، وأجلس ابن بدر في الخلافة أحمد بن المستنصر ولقبه بالمستعلي، صار يقال له الأفضل، ومن بعده صار من يتولى هذه الرتبة يتلقب بها أيضاً، فمن حديث المقرزي يمكن أن نستنتج أن لقب الأفضل صار له عندما فضل خلافة المستعلي على نزار، وأقامه بدل أخيه، منذ ذلك الحين صار يقال له الأفضل، أما الوزراء الذين حملوا هذا اللقب من بعده، فقد حملوه تقليداً وتشبهاً.

قضى المستنصر عام ٤٨٧هـ (٢٩ ديسمبر ١٠٩٤م)، وخلف من بعده، سبعة أولاد، كان أصغرهم المستعلي، الذي اعتلى العرش، بمساعدة الأفضل، وأكبرهم نزار، الذي أقصي عن العرش، وتضطرب الرواية الإسلامية في هل عهد الخليفة الراحل من بعده بالخلافة إلى ولده نزار أم لا؟ ويقال إن الخليفة قد نصّ صراحة في حياته على أن يخلفه ولده، أبو المنصور نزار، فلما مرض أراد أخذ البيعة له، فتقاعد الأفضل، ودافع المستنصر من يوم إلى يوم حتى مات، ولقد عمد الأفضل بشتى الوسائل إلى إبعاد نزار عن الخلافة، فأخذ يدس له، عند العوام والخواص، وخوفهم منه، حتى انفضوا من حوله، ثم فاض عمه نزار في ولاية أبي القاسم على أن يلقب بالمستعلي على أن تكون لها كفالة الدولة فشهدت بأن المستنصر عهد له بمحضر القاضي والداعي، جد الأفضل بعد ذلك في أخذ البيعة للمستعلي، وتم ذلك بحضور قاضي القضاة المؤيد بنصر الأنام علي بن نافع بن الكحال، على مقدمي الدولة ورؤسائها وأعيانها، واستجاب لهذه البيعة كل من إسماعيل وعبد الله ابني المستنصر، وكتب بذلك محضراً قرأه على الأمراء، الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني، الكاتب بديوان الإنشاء.

لم يترك نزار الأمر يمضي على هذا النحو سهلاً ليناً وهو فيما يرى صاحب حق مغتصب، وقال للأفضل يوم طلب منه مبايعة المستعلي لو قطعت ما بايعت من هو أصغر مني سناً، وخط والدي عندي بأني ولي عهده، وأنا أحضره، وخرج مسرعاً، حيث مضى هو وأخوه عبد الله ناقضاً البيعة، وابن مصال السلكي إلى الإسكندرية، وهناك استمال نزار واليها المدعو ناصر الدولة أفندي التركي، إذ وعده بالوزارة، وكذا بايع أهل الإسكندرية نزاراً ولقب بالمصطفى لدين الله، وساعده على ذلك ابن عمار قاضي الاسكندرية فكان البيعة التي تمت بالقاهرة على يد قاضي القضاة علي بن نافع الكمال قد تم مثلها بالاسكندرية على يد قاضي الإسكندرية جلال الدولة علي بن أحمد بن عمار، وذلك ما أزعج الأفضل كثيراً فأخذ يعد العدة لملاقاة نزار.

وفي آخر المحرم ٤٨٨هـ (فبراير ١٠٩٥م) أعد الأفضل حملة سار بها متجهاً إلى الإسكندرية غير أنه انكسر في جولته الأولى، وتمكن نزار من الاستيلاء على الوجه البحري بما توافر لديه من الأنصار العديدين من أعراب الدلتا، وبذا أصبح نزار خطراً حقيقياً يهدد سلامة الدولة. رجع الأفضل إلى القاهرة منكسراً، وليس خائب الرجاء، فجمع على عجل جيشاً آخر، وتوسل بوسائل الدس والرشوة لدى أعوان نزار وأفتكين، وأخذ يعدهم الوعود الطيبة، فانفض أعوان نزار من حوله. وأقدم على محاصرة الإسكندرية، وضيق عليها الخناق، ففر ابن مصال إلى المغرب وضعفت بذلك شوكة نزار وأفتكين، وطلب الأمان فأمتهما، ثم قبض عليهما وعلى ابن عمار وأرسلهم مخفورين إلى القاهرة، فأما نزار فإنه قتل في القصر بأن أقيم بين حائطين بنيا عليه، وأما أفتكين فقد قتله الأفضل بعد قدومه ويقول ابن خلدون (ج ٤ ص ٦٦) إنه قتل بالضرب بالعصى لأن الأفضل أحضره يوماً ووبخه فهم بالرد عليه.

وعلى هذا نرى أن الأفضل أخل بالأمان الذي أعطاه لنزار وأفتكين وابن عمار، لأنه كان حانقاً حنقاً كبيراً على نزار وأفتكين. ولأن الأخير كان يلعن المستعلي والأفضل على المنابر، كذا قتل الأفضل عبد الله أخ نزار، وولي أبا الحسن بن حديد قاضياً على الإسكندرية بدل ابن عمار.

وتردد بعض المصادر سبباً طريفاً تعلل به فرار ابن مصال إلى بلاد المغرب وذلك أن ابن مصال رأى في منامه أنه راكب فرساً والأفضل يسير في ركابه فقال المعبر: الماشي على الأرض أملك لها، فلما سمع ذلك جمع ما له وفر إلى بلاد المغرب، ويقال إن الأفضل أمن ابن مصال واستقدمه وأبقى عليه، وهكذا استطاع الأفضل القضاء على هذه الفتنة في مهدها التي لو قدر لها النجاح لأطاحت بوزارته وبخلافة المستعلي.

ويجدر بنا أن نتساءل: ما هي الأسباب التي حملت الأفضل على إقصاء نزار عن الخلافة؟ تردد غالبية المصادر وخاصة العربية منها أن نزاراً خرج ذات يوم في حياة أبيه فإذا الأفضل راكب وقد دخل من أحد أبواب القصر، وكان الممر مظلماً فلم يره ولم يترجل، فصاح به نزار انزل يا أرمني الجنس.

وفي رواية أخرى انزل يا أرمني يا كلب، وفي الثالثة انزل يا أرمني يا نجس، وعلى هذا أضمر كل لصاحبه الكراهية، ومن دواعي هذه الكراهية أيضاً، أن كان لنزار حاشية وأعوان يعملون على إقصاء الأفضل عن الوزارة.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الأفضل يعارض نزاراً في أيام أبيه ويستخف به، ويضع من حواشيه وأسبابه ويبطش بغلمانه، فلما مات المستنصر خاف الأفضل على نفسه فعمل على إقصائه عن العرش. أما المصادر الأجنبية فتورد جملة تعليقات لهذا الإقصاء من أهمها أن الأفضل كان يرغب في الاحتفاظ لنفسه بالقوة التي كانت لأبيه أيام المستنصر، فعمل على إقصاء نزار عن الخلافة وكان عمره إذ ذاك خمسين عاماً، أما المستعلي فكان عمره في ذلك الحين ثماني عشرة عاماً، فيكون ولا شك في يده أطوع أمراً وأسلس مقادة من أخيه المسن، فكان الأفضل يابعده نزاراً

عن العرش، كان مدفوعاً بعوامل شخصية قوامها الكراهية والطمع في تركيز السلطة في يده، ولم تذكر المصادر عربية كان أو أفرنجية عيوباً خلقية أو خلية تحول دون تولي نزار الخلافة. ويجدر بنا أن نلم في ختام هذا المقام بالنتائج التي ترتبت على حركة نزار وهزيمته، وأهمها نتيجتان: الأولى: ازدياد قوة الأفضل بالطبع، إذ ظل المستعلي مسلوب السلطة معه طيلة خلافته، والثانية أن هذه الحركة سببت الانقسام في صفوف الفاطميين، فأصبح الفاطميون وأعوانهم بمصر قسماً، وأتباعهم خارج مصر قسماً آخر، وهؤلاء هم النزاريون الذين كانوا يدعون مبدئياً للمذهب الفاطمي عامة، ثم أصبحوا بعد مقتل نزار سنة ٤٨٨هـ حزباً قائماً بذاته يعمل على مناوئة الفاطميين بمصر ويقول بإمامة نزار، ولقد سببت هذه الطائفة كثيراً من المتاعب للدولة الفاطمية، ولقد دخل بعضهم مصر ولا يبعد مطلقاً أن يكونوا هم الذين دسوا السم للإمام المستعلي.

(٢)

قدم مصر عام ٤٧٩هـ حسن بن الصباح رئيس الإسماعيلية، واجتمع بال خليفة المستنصر الفاطمي، وتكفل بنشر الدعوة له في خراسان، فأمدّه الخليفة بالمال وسأله ابن الصباح عن الخليفة من بعده، فقال: ولدي نزار، وأقام ابن الصباح بمصر ثمانية عشر شهراً، رحل بعدها إلى بلاد العجم، حيث جد في نشر دعوته، وبث تعاليمه حتى كثر أشياعه، وأخذ يجمع السلاح سرا، ولما قويت شوكته، استولى على قلعة الموت Castle of almut من ملوك الديلم، وجعلها مركزاً لبث دعوته الإسماعيلية، ثم استولى بعد ذلك على قلعتي الدروخان، ومن قلعة الموت أرسل دعااته ورسله إلى مختلف الجهات، وأخذ يلقي على العلماء مسائل منها: لم كانت الأيام سبعة؟ والبروج اثني عشر؟ وادعى أنه استأثر من إمامه بغوامض العلوم، وكثر اغتياله للملوك والرؤساء، وجاء الإمام أبو حامد الغزالي إلى نيسابور حيث ناظر أتباع ابن الصباح، وألف كتاب «المستظهر» وأجاب عن مسألتهم، وسميت فرقة ابن الصباح هذه بادئ الأمر، بالإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، جد الفاطميين الأكبر، وتحت هذه التسمية خدمت طائفة الإسماعيلية الفاطميين خارج مصر، ودعوا إليهم، وبعد مقتل نزار على النحو الذي أشرنا إليه، سميت هذه الطائفة باسم النزارية، نسبة إلى نزار، الذي نص الإمام المستنصر على خلافته، من بعده، وهم يعتقدون أن نزاراً لا محالة ظاهر على وجه الأرض مرة أخرى، وتحت هذه التسمية، خدم النزاريون حزبهم، وانفصلوا عن الفاطميين بمصر، بل وعملوا على مناوئتهم على نحو ما ذكرناه وسميت هذه الطائفة أخيراً بالحشاشين، إما لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش *consommateurs de hachich* أو لأنهم كانوا يقومون بأعمال لا يأتياها إلا الحشاشون «وهو دعاء عدد من الكتاب الغربيين ولم يصح»، فأطلق عليهم هذا الاسم تجوزاً، وكانت لهذه الطائفة نظم تشبه نظم الطائفة الإسماعيلية عامة، ولكنها تختلف عنها في التفاصيل، وهكذا كان نشوء فرقة النزارية، من الظواهر العامة التي يتميز بها عهد الأفضل.

قضى المستعلي في ١٦ صفر سنة ٤٩٥هـ (١١٠١م) وتولى الأفضل أخذ البيعة الأمرية، وخلف المستعلي ثلاثة أولاد هم: أبو علي ونعت بالأمير، وجعفر وعبد الصمد. وكان عمر الأمر يوم تولى الخلافة، خمس سنوات وشهرا وأربعة أيام، ولم يستطع الخليفة الطفل أن يعتدل على فرسه يومذاك، فأجلسه الأفضل أمامه، على فرسه، وطاف به القاهرة على هذه الحال. وللقارئ أن يتصور مدى السلطة التي كانت للأفضل أيام هذا الخليفة، فلما كبر، واشتد ساعده، أحس بثقل يد الأفضل عليه ففكر في التخلص منه، وفعلا تم له ما أراد على نحو ما سنذكره.

وكان للأفضل سياسة داخلية واضحة، فقد بنى دار الوزارة الكبرى، التي يقول ابن عبد الظاهر أنها من بناء أبيه بدر، ولكن كتب ابتاعيات الأملاك القديمة التي بتلك الخطة تدل على أنها أصبحت بعد ذلك مقر الملوك، وصار يطلق عليها الدار السلطانية، كذلك بنى الأفضل مرصدا بسبب الاختلاف بين التقاويم الشامية والمصرية كل عام كما أمر ببناء خليج تسمية العامة بحر أبي المنجا نسبة إلى أبي المنجا بن شعيا، اليهودي الذي قام بحفره، كما بنى في عهده كثير من الجوامع والمساجد منها جامع الفيلة والمسجد الجيوشي وبنى المئذنة الكبيرة بجامع عمرو بن العاص، والمئذنة السعيدية المستجدة به أيضا وبنى جامع الجيزة، كذلك، وجدد الأفضل عام ٥٠١هـ ديوانا أسماه ديوان التحقيق أقام عليه أبا البركات بن الليث النصراني. وأنشأ الأفضل كثيرا من البساتين والحدائق، وكان من أهم التنظيمات التي أحدثها الأفضل نظام خيالة أطلق عليه *Squires of the chamber*.

وكان على هؤلاء الفرسان تنفيذ أوامره دون اعتراض، فهم يشبهون عندنا اليوم ما نسميه بالفرق الفدائية، ويقص علينا الأستاذ Hanotaux في كتابه *Egyptienme Histoire de la Nation* جزء ٤ صفحة ٢٦٧ طائفة أخرى من إصلاحات الأفضل فيقول إنه بظهور الأفضل على مسرح التاريخ الفاطمي، ابتدأت سلسلة متصلة من الإصلاحات المالية، فقد غير من قيمة القطع النقدية، كما وضع نظاما لتولي الخلافة في حالة عدم وجود وريث، كما أنشأ مجلسا للعددين، ونتج عن إصلاحات الأفضل رخاء شامل، وأضحى ناتج الضرائب ضعف ما كان عليه أيام أبيه، وليس هذا نتيجة لتعسف أو نحوه، وإنما بسبب الإصلاح الفاطمي لم يكن مرجعه إلى الخلفاء وحدهم، بل أيضا إلى وزرائهم الأكفاء والأقوياء والأثرياء.

أما عن سياسة الأفضل الخارجية فتتلخص في استرداد الممتلكات الفاطمية التي التهمتها دولة الأرتقيين، وهي بيت المقدس وسائر فلسطين وقسم من غربي سوريا، وكانت دولة السلاجقة إذ ذاك بالقسم الشرقي من سوريا، كما كانت هذه القوى التي تنتظم الشرق الأدنى على شيء كثير من التفكك والانحلال مما مهد السبيل أمام الصليبيين إلى لقمة سائغة، ويجب أن نقرر هنا أن حملة الأفضل التي شنّها على سكرمان الأرتقي سنة ٤٩٠هـ وانتزع بها بيت المقدس من يديه، كانت في الواقع خطوة خطاها في صالح الصليبيين، إذ بها أزال عقبة كؤودا من سبيلهم، ولقد

تحمل السلاجقة الدقة الصليبية الأولى، فذهبت إمبراطوريتهم مع الريح، وأضحى الشرق الأدنى كله تحت رحمة الصليبيين معاهدة ذهب المصادر في تحليلها مذاهب شتى فابن الأثير يقول إن الأفضل عمد إلى محالفة الصليبيين خوفاً من قوة السلاجقة ويقول الأستاذ Hanotaux إن الأفضل قد توخى بذلك وجه الحكمة، أما الأستاذ ستانلي ل. بول Stanley L. Poole فينقل عن كتاب Cp. Aist. Occ. der Croisades Iv 48.78، تعليلاً لا أراه من العقل في شيء، إذ يقول: إن الأفضل ربما يكون قد انتوى التحول إلى المسيحية وذلك يذتقصه ما نعرف عن عقيدة الأفضل، ومواقفه الدينية المشهورة ويقولون كذلك إن الفطائع التي اقتترفها الصليبيون قد خافت الوزير المصري، غير أن هذه المعاهدة الوهمية لم توقف الصليبيين عند حد، إذ لم تمس الدافع الذي حرك الفرنجة من بلادهم، وهو التعصب الديني الأعمى، والمهم هو أن الصليبيين اكتسحوا الشرق الأدنى وأشبعوا أهله تقتيلاً، ودياره نهباً وتخريباً، وكانت السياسة الدفاعية هي المسيطرة على الموقف حتى آخر الخلافة الفاطمية، ويميل مؤرخو العرب إلى انتقاد سياسة الأفضل الخارجية من هذه الناحية.

ويحسن في ختام حديثنا عن الأفضل أن نلم بشيء من أخلاقه وصفاته، كان الأفضل مكرماً لأهل العلم والأدب وكان هو نفسه شاعراً وأديباً، وخلف مكتبة تحوي خمسة آلاف مجلد وصارت مصر مقصد الطامعين في جودة من الشعراء والأدباء وكان شديد الغيرة على نسله. وكان الأفضل يميل ميل السنة، فالغى الاحتفال بالموالد الأربعة، مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومولد فاطمة رضي الله عنها ومولد سيدنا علي رضي الله عنه ومولد الإمام الخليفة القائم بالأمر، وكان ذلك في الواقع كافياً لتقويض دعائم الحكم الفاطمي، كما كان ذلك أيضاً سبباً في كراهية النزاريين له، وقد يكون ميله السني أحد العوامل التي أطاحت بحياته، كان الأفضل ثابت العقيدة راسخ الإيمان، عادلاً حسن السيرة حكى أنه لما قتل وظهر الظلم بعده، اجتمع جماعة من الناس واستغاثوا بالخليفة ولعنوا الأفضل فسألهم الخليفة عن سبب لعنهم إياه فقالوا: إنه عدل وأحسن السيرة فغادرنا بلادنا وأوطاننا وقصدنا بلده لعدله وأصابنا بعدها الظلم، فهو كان السبب في ظلمنا، فأحسن الخليفة إليهم، وكان الأفضل كذلك فحل الرأي حسن التدبير، معتزاً بنفسه.

وقد ترك الأفضل ثروة أفاضت المصادر في عدها وحصرها، حتى بلغت إلى حد كبير، ولكنها تنبئنا على أي حال بما كان لذلك الوزير من سلطة مطلقة لا تحد.

قضى الأفضل مقتولاً، قيل بتدبير من الطائفة البديعية التي ضيق عليها الأفضل في حياته وقيل وهو الراجح بتدبير من الخليفة الأمر، لتضييقه عليه، وتدخله في كل صغيرة وكبيرة في شؤون الدولة.